الباب الأول

obeikan.com

obeikan.com

بلاد العرب

كانت الجزيرة العربية في الفترات التاريخية القديمة أرضاً شديدة الخصوبة بها أنهار جارية، وتم اكتشاف بقايا حيوانات ضخمة في الجزيرة العربية، ففي غرب الجزيرة العربية، تم اكتشاف بقايا فيلة ضخمة وقطط حادة الأسنان وضباع،وفرس النهر، وزراف وبقر وغزلان وتماسيح وسلاحف وأسماك، وكذلك جذور أشجار متحجرة يصل طول بعضها إلى عشرة أمتار، وفي جنوب الجزيرة العربية تم اكتشاف آثار ديناصورات بعضها لآكلي اللحوم والبعض لديناصورات آكلة نباتات، إضافة لاكتشاف بيضة ديناصور في منطقة أرحب اليمنية وفي غرب الجزيرة العربية، تم اكتشاف عظام ديناصور يصل طوله إلى 12 متر وبيضة ديناصور في ينبع تعتبر الأكبر من نوعها عالميًا.

وتشير الأبحاث إلى أن شعب الجزيرة العربية كان على هيئة جماعات منظمة تحترف الزراعة والرعي والصيد ذلك حتى منتصف العصر الهيليوسيني وشكل ذلك الشعب العرق السامي الذي تعرض لدراسات لتحديد معالمه وثقافته، وقد أظهرت الشعوب السامية احتفاظها بالكثير من الخصائص الدينية واللغوية المشتركة، منها مصطلحات متنوعة إدارية كملك وتدل على أنه كان لهم تنظيم سياسي موحد أو على الأقل

تنظيمات منحدرة من أصل سياسي مشترك لايبعد كثيرًا عن فترات التدوين التاريخي ولكن الإتساع الجغرافي للجزيرة العربية وطبيعة توزع موارد المياه كانت بعكس مصر مثلاً سبباً في صعوبة استمرار الكيان السامي تحت حكومة موحدة وبحسب بعض الدراسات أن اللغة العربية هي أكثر اللغات السامية احتفاظا بخصائص اللغة السامية الأم لكن التغيرات المناخية العالمية في أواخر عصر الهيليوسين حيث بدأت الأمطار تقل في الجزيرة العربية وتجف الأنهار سبباً في اتجاه سكان الجزيرة العربية تدريجياً إلى الشمال بما عرف بالهجرات السامية إلى حيث الوفرة المائية من الأنهار كدجلة والفرات ويقول بعض العلماء أن الجزيرة العربية قبل ذلك كانت أكثر إغراء للعيش فيها من العراق أو الشام حيث يلاحظ العلماء أن فترة نهاية المستوطنات في الجزيرة العربية مثل مستوطنات ثقافة العبيد كان مترافقاً مع ظهور المستوطنات في بلاد ما بين النهرين، أواخر فترات ما قبل التاريخ.

وبعد نشأة الهجرات السامية أطلقت كل جماعة منهم اسماً تسمت به، أما أول ظهور تاريخي لكلمة عرب فقد كان في معركة قرقر في سنة (853 ق.م) وأطلق هذا الاسم في البداية على سكان شمال الجزيرة العربية وبالذات مقترناً بالقيداريين، ثم توالى ذكر العرب في النصوص

التاريخية بعد ذلك بشكل متسارع حتى شملت كلمة عرب ليس فقط سكان شمال الجزيرة العربية بل كل سكانها حتى الجنوب، وقد قسم المؤرخون المسلمون أصول العرب إلى ثلاث طبقات: وهم العرب العاربة، العرب المستعربة، والعرب البائدة تلك التقسيمات بالإضافة إلى أن تسمية عدنانيين وقحطانيين لم تكن موجودة قبل الإسلام ولم يعرفها الأدب الجاهلي إنما وجدت بعد الإسلام في الفترة الأموية حيث أصبح اليمنيون أو عرب الجنوب كما يسميهم المستشرقون من جهة وعرب باقي الجزيرة العربية الشماليون بحسب المستشرقين من جهة أخرى يتبارون في المفاخرة وكل فئه تنسب أصل العروبة لها فاليمنيون يقولون منًا يعرب ونحن أصل العرب والشماليون يقولون نحن فقط بني أسماعيل أبو العرب وأنتم لستم منه، والمعروف أن العرب جميعهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم النبي، وتشير المصادر التاريخية القديمة إلى أن العرب عرفوا باسم الإسماعيليين حتى فترات قريبة من الإسلام، وتذكر الكتب السماوية قصة البشارة حيث نجد أن الله وعد نبيه إبراهيم الخليل بأن إبنه إسماعيل الابن البكر لأمه هاجر سيكون من عقبه أمة كبيرة، ويذكر في سيرة الخليل إبراهيم أنهم لما بلغوا بئر سبع بفلسطين صلى على إبنه الأكبر إسماعيل، وأمته من العرب وقد ورد في القرآن الكريم استجابة الله لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي

زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ،وجاء في التوراة:(وأما إسماعيل قد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثني عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة) أما العرب البائدة فهم الأقوام القديمة التي لم يبق لها ذكر، بعض الشعوب العربية التي ذكرت في المصادر القديمة ثم اختفت هي: (العماليق، ثمود، القيداريين، مديانيين، دادانيين) وظهر من الجزيرة العربية الهكسوس الذين نزحوا من الشمال واستولوا علي الدلتا بشمال مصر في الألفية الثانية ق.م.

ولم يرد ذكر لإسماعيل في أي كتابة قديمة ولاتوجد دلائل أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفونه فكلمة عربي في كل النصوص القديمة تعني البدوي سواء كان في الجزيرة العربية أو صحراء مصر وهي المكان التي ذكر التوراة أن إسماعيل وأمه المصرية نزلوا بها أما اليمنيون فلم يعرفوه البتة وكانوا يعتقدون أنهم أبناء آلهتهم .

وتمتد بلاد العرب التاريخية من الجزيرة العربية جنوبًا حتى تركيا شمالًا، ويحدد بلينوس (القرن الأول الميلادي) حدودها الشمالية بجبال أمانوس (لواء الإسكندرونة الآن) من الجهة اليمنى ومن الجهة اليسرى منطقة الرها في تركيا اليوم التي تقع في المنطقة العربية بحسب

المؤرخين اليونان والرومان، هناك أسس العرب مملكة الرها في القرن الثاني للميلاد ووجود الشعوب العربية في تلك المنطقة يرجع لأقدم من ذلك بكثير، وآخر من هاجر إلى هناك هم بنو شيبان من بكر بن وائل بعد حرب البسوس وكانوا تابعين للمناذرة، واليوم فمعظم عرب الرها هم من عرب المحلمية الشيبانيين وبعض عرب محافظة ديار بكر التركية التي لا تزال تحتفظ باسمها القديم، ومن الشرق تواجد العرب في منطقة الأهواز، وعموماً يغلب على مناطق جنوب ووسط الجزيرة الفراتية وجنوب الشام العنصر العربي فيما عدا المناطق الجبلية الساحلية وأقصى شمال الجزيرة الفراتية حيث يخالطهم فيها أقوام ساميون آخرون ومن كبريات المدن العربية في الجزيرة الفراتية نصيبين وسنجار وتكريت والموصل.

وتعد شبه الجزيرة العربية وتسمى كذلك شبه القارة العربية هي أكبر جزء من بلاد العرب، وتقسم كالتالي:

عند اليونان والرومان :قسم جغرافيوا اليونان الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقاليم رئيسية وهي:العربية البترائية تقع شمال غرب الجزيرة بين جنوب الشام وشرق فلسطين وعاصمتها بصرى.

العربية السعيدة تقع جنوب الجزيرة العربية في اليمن وأجزاء من عمان والسعودية.

العربية الصحراوية تضم بقية شبه الجزيرة العربية خصوصاً نجد.

أما الساحل الشرقي للجزيرة العربية فليس جبليًا ولا صحراويًا ويتكون من سهول منبسطة قليلة التضاريس وينحدر حتى يصل إلى الخليج العربي.

عند المؤرخين المسلمين :الحجاز:الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية ونجد:هضبة واسعة وسط شبة الجزيرة العربية أما البحرين:الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية ويمتد من عمان إلى البصرة شمالاً واليمن:الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية ويمتد من ظفار جنوباً إلى عسير شمالاً بمعنى كل ماهو جنوب مكة فهو يرجع إلى اليمن.

تهامة:السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر.

ويرى العلماء أن ريموم الذي حكم البحرين في حوالي 1750 ق.م كان أصله وبحسب النقش من جرم، التي هي مدينة هجر (الإحساء اليوم)، تحدثت المؤلفات اليونانية عن مدينة ذات ثراء فاحش هي مدينة دعوها

جرهاء، أدواتهم المنزلية من الذهب والفضة وجدرانها وسقوفها مرصعة بالأحجار الكريمة والعاج وموشاة بالذهب والفضة، تجارتهم برية وبحرية ، البحرية تصل للهند والصين وفارس والبرية تنقل إلى سوريا وفلسطين والأردن (سلع) وتسير مراكبهم حتى تبلغ بابل ومن هناك تكمل الطريق في الفرات ثم يتم تحميلها في قوافل لتنتشر البضائع إلى كل مناطق البلد، يرى بعض العلماء أن جرهاء هي النطق الهلنستي لهجر من حوالي 220 ق.م قامت مملكة في الأحساء عرف ملوكها بملوك هجر معلوماتنا عنهم ناتجة عن دراسة لعملاتهم التي نقشت عليها اسماؤهم بخط المسند وقد تحول بعض سكان شرق الجزيرة العربية إلى المسيحية وعين لهم أساقفة في أربع أسقفيات هي أسقفية هجر وأسقفية دارين وأسقفية سماهيج وأسقفية مازون.

أوضاع العرب قبل البعثة

لنتعرف على الظروف والأوضاع التي كانت تحكم المجتمع والمنطقة أنذاك، والتي انطلقت فيها دعوة النبي (ص)إلى الإسلام فقد كانوا أمة قبلية وعبدة للأصنام وعلى المستوى الديني كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية وكانت عقيدة الشرك وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة ويكفي أن نذكر أن عبادتهم للأصنام

كانت ملونة باللون القبلي وسوف نستعرض في حديثنا هنا، الظروف والأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية، أي في منطقة الحجاز وجوارها.

على المستوى الديني

على المستوى الديني كانت الوثنية هي الديانة الكبرى في شبه الجزيرة العربية وكانت عقيدة الشرك وعبادة الأصنام متفشية بين سكان هذه المنطقة ويكفي أن نذكر أن عبادتهم للأصنام كانت ملونة باللون القبلي، فلكل قبيلة، بل لكل بيت وثن وطريقة في العبادة ورغم أنهم كانوا يعتقدون فوجود الله وخلقه للكون، إلا أنهم كانوا يرون أن عبادتهم للأصنام تقربهم من الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

على المستوى السياسي

أما على المستوى السياسي، فإن سكان شبه الجزيرة العربية أنذاك لم يخضعوا لأي سلطة أو نظام غير سلطة القبيلة، وبسبب أن معظم سكان هذه المنطقة، كانوا من البدو الرحل الذين يمسون في مكان ويصبحون

في مكان أخر، وبسبب رفضهم لجميع أنواع التسلط الذي يحدّ من حرية الأفراد والأسرة والقبيلة وبعض العوامل الاقتصادية نظراً لأن طبيعة المنطقة صحراوية لا تصلح للزراعة والعمل ولا تساعد على الاستقرار لتنظيم الحياة والانتاج لأجل كل ذلك فهذه المنطقة بقيت بعيدة عن سيطرة الدول الكبرى ونفوذها آنذاك، كدولة الفرس ودولة الرومان فلم تخضع المنطقة العربية لحكم ونظام أي من الرومان أوالفرس أوالأحباش، ولم تتاثر بمفاهيمهم وأديانهم كثيراً.

ومن هنا فقد نشأت من هذا الوضع ظاهرة الدويلات القبلية، فكان لكل قبيلة حاكم، ولكل صاحب قوة سلطان، ولم يكن يجمعهم نظام واحد، أو سلطة سياسية واحدة، إنما كانوا يعيشون فراغاً سياسياً في هذا الجانب.

الوضع الاجتماعي

أما الوضع الاجتماعي، فإن الحياة الصعبة، التي كان يعيشها الإنسان العربي في البادية والحكم القبلي وعدم وجود روادع دينية أو وجدانية قوية دفع القبائل إلى ممارسة الحرب والاعتداء بعضهم على بعض كوسيلة من وسائل الحصول على مقومات العيش أحياناً، وأحياناً لفرض السيطرة، وأحياناٍ أخرى للثأر والقصاص فكانت هذه القبيلة تغير على تلك القبيلة وتستولي على أموالها وتسبي نسائها وأطفالها،وتقتل أو

تأسر من تقدر عليه من رجالها ثم تعود القبيلة المنكوبة لتتربص بالقبيلة التي غلبتها وهكذا لذلك فمن يطالع كتب التاريخ يرى بوضوح إلى أى حد كانت الحال الاجتماعية مترديه في ذلك العصر فالسلب والنهب والإغارة والتعصب القبلي كان من مميزات ذلك المجتمع وكانت لأتفه الأسباب تحدث بينهم حروب طاحنة ومدمرة يذهب ضحيتها آلاف الناس.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما عرف بحرب داحس والغبراء ولعل أفضل مرجع للتعرف إلى ملامح الوضع الاجتماعي في العقد الجاهلي هو كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) التي يصف فيها حال العرب قبل بعثة النبي (ص)، إذ يقول في بعض كلماته : إن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار مقيمون بين حجارة خُشن وحيات سم تشربون الكدر وتأكلون الجشب (الطعام الغليظ) وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة.

وكان النسب هو العامل الفصل في مكانة الفرد فمن ولد في عشيرة كثيرة الأنفس ومنها أعيان المدينة فهو عزيز ومنيع في تعبير ذلك الزمن ويعني في المصطلحات الحديثة مواطن لدولة قوية، أما من كان من عشيرة صغيرة وليس لها أعيان متبعون وفيهم المشورة فهو حر وليس

عزيزاً فلا يتجرأ على من ينتمي إلى العشائر الأقوى وإلا تعرض لأشد العقاب من تلك العشيرة ولاتستطيع عشيرته حمايته وإلا تعرضت هي الأخرى لما تكره، أما الأحلاف وهم بتعبير اليوم الوافدون فكانت مكانتهم أقل من الأحرار فهم إما خلعاء من عشائرهم الأصلية أو قدموا للإقامة لأسباب أخرى فكانوا يربطون أنفسهم مع من نزلوا عنده فكان بمنزلة الكفيل اليوم فكان يقال فلان مولى فلان، وهم في حماية أحد الأفراد في عشيرة تلك المدينة، أما العبيد فمكانتهم منحطة لا حقوق لهم ويتم استغلالهم للعمل في الأمور التي يأنف منها اصحاب النسب وحين يكبر المجتمع العربي فإنه يحتاج لنظام للمشورة مثل مجالس الشورى والبرلمان.

كان اهتمام العرب قبل الإسلام بالمرأة استثناءاً بين الأمم، فاهتموا بحفظ كرامتها وسترها، فكان للنساء خدر في المسكن ويوفر السجف وهو الساتر يكفل لهم الحرية والخصوصية وفي الخارج كانت النساء تلبس مايسترها وتركب في الهودج عند السفر لكى لايراها الغرباء وكان من النساء قبل الإسلام الطبيبة كالشفاء بنت عمرو وسيدة الأعمال كخديجة بنت خويلد ووصلت المرأة إلى مراتب عليا كما هو حال بلقيس ملكة سبأ، وزنوبيا ملكة تدمر، وزبيبة وشمسي ملكات قيدار، ومناصب

كبيرة لا سيما عند الأنباط ولم يقتصر دورها في الحياة الاجتماعية بل وفي صلب الحياة السياسية، وحتى في مجال العلاقات القبلية، فكثيراً ما كانت النساء تشارك في حل النـزاعات بين القبائل، أو تأجيج الخلافات وإشعال الحروب، كما فعلت البسوس في الحرب التي سميت على اسمها، وهند بنت عتبة في معركة أُحُد وعائشة بنت أبي بكر في موقعة الجمل، ولكن مشاركة المرأة السياسية عموماً كانت من وراء ستار، الأمر الذي جعل مشاركتها هامشية حيناً ومستترة أحياناً، أو غير مدونة ولم يأتي على ذكرها أحد، فالتي أسعفها الحظ وبرزت دخلت بوابة التاريخ وذُكرت في سجلاته، والتي لم يسعفها الحظ طواها النسيان وقد سجلت لنا المصادر التاريخية نساء كثيرات بنَيْنَ لأنفسهن قصص نجاح مميزة، أو تميّزن بالشخصية القوية أو برجاحة العقل، فزرقاء اليمامة مثلاً كانت تستشرف بذكائها ما وراء الأفق، وجهيزة قطعت ببلاغتها قول كل خطيب، وخديجة بنت خويلد كانت تجارتها تعادل ثلث تجارة مكة بأكملها، وفيلة الأنمارية كانت تاجرة مهمة تبيع وتشتري بنفسها، وخالدة بنت عبد مناف،وصحر بنت النعمان اشتهرتا بالحكمة والذكاء والكمال، وكانت العرب تتحاكم عندهن في المشاجرات والأنساب،وهنالك خولة بنت الأزور الفارسة الشجاعة، والخنساء الشاعرة المخضرمة وبالإجمال يمكن القول أن وضع المرأة لم يكن بالصورة السيئة التي يحاول البعض

رسمها، ولم تكن شخصيتها مستلبة تماماً، فمثلاً كانت المرأة تتمتع بحرية اختيار زوجها، وأن تشترط على زوجها أن تملك أمرها ولا يتزوج عليها وما تسمية بعض القبائل بأسماء الأمهات كمزينة وبجيلة وباهلة، إلا دليل على المكانة الرفيعة للمرأة في ذلك الزمان .

الوضع الخلقي

أما الوضع الأخلاقي العام، فقد كانت القسوة والفاحشة وشرب الخمر والربا ووأد البنات خشية العار والفقر هي السمات العامة للأخلاق المتفشية في المجتمع الجاهلي ويكفي أن نشير إلى بعض النماذج من العادات والتقاليد التي كانت سائدة أنذاك، والتي أشار إليها القرآن الكريم لمعرفة مدى شيوع الفاحشة وظاهرة انعدام الغيرة والتحلل الاخلاقي في تلك المجتمعات الجاهلية كما كان من عاداتهم القبيحة أيضاً الطواف حول الكعبة وهم عراة، سواء الرجال والنساء وكان الرجل إذا هدده الإفلاس وشعر أنه سيصاب بالفقر كان يبادر إلى قتل أولاده خوفاً من أن يراهم أذلاء جائعين ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، بقوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وأياهم .

كما أننا نستطيع معرفة مدى شيوع ظاهرة وأد البنات ودفنهن وهن أحياء من تعرض القرآن الكريم لهذه العادة وإدانته لهذه الجريمة

وتعنيفه لتلك المجتمعات على هذا السلوك الوحشي فقد قال تعالى : وإذا المؤدة سئلت بأي ذنب قتلت، وقال أيضاً :وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به.

السجايا العربية

عرفت الأمم الأخرى عن العرب صفات كثيرة كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيراً بعد أن طفحت شراً .

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي تنتشر فيه الفضيلة فبذلك يكون مؤهلاً لحمل الرسالة الإسلامية، وإنما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأن الأقوام الأخرى وإن كانوا على ما هم عليه وما هم فيه من فلسفة ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح.

الذكاء والفطنة :فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب المجاورة، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة وكان من أمر فطنتهم أنهم يستخدمون الإشارة فضلا عن العبارة، وشواهد ذلك كثيرة.

الكرم والسخاء: كان هذا الخُلُق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال.

المروءة والنجدة : كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئاً على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم قال عنترة العبسي :

بَكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزلِ

فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أُسْقى بكأس المنهلِ

فأسقني حياءك لا أبا لك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقال :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل : كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه،

ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار وتتكرر تلك القيمة مرارا في الشعر الجاهلي، ولاتجد شعوبا أخرى تتسلط عليهم وتحتلهم طوال تاريخهم، وأشاد هيرودوتس بحب العرب للحرية، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستذلالهم.

الوفاء والصدق : أما وفاؤهم: فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: وإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماء فهي وَلث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه فلا يُغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله والوفاء خلق متأصل فى العرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة، فغلظ على من آوى محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته، قال رسول الله: لعن الله من آوى محدثا ومن القصص التي توضح شيمة الوفاء عندهم: أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: بؤ بشسع نعل كليب

في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الإكبار ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير : كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن أعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده.

قوة البدن وعظمة النفس : واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية مع البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجوار،لا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

الوضع الاقتصادي

اقتصاد الجزيرة العربية في ذلك الوقت كان يعتمد على شبكة التجارة العربية القديمة، بالإضافة لذلك فهناك أنشطة اقتصادية متعددة منها الزراعة التي ازدهرت في بعض المناطق بالرغم من عدم وجود أنهار دائمة في الجزيرة العربية، فاستعمل العرب قديما أنظمة السدود وقنوات الري خصوصاً في اليمن وشرق الجزيرة العربية ووادي القرى شمال الحجاز والطائف ، وتلك المناطق انتجت أصنافاً من الحبوب والفاكهة والزراعة في المناطق الأخرى من الجزيرة العربية اعتمدت على زراعة نخيل التمر بشكل أساسي، اقتصاد مكة كان متيناً حيث كانت مركزاً تجارياً ودينياً هاماً نظراً لمرور القوافل التجارية القادمة من الشمال والجنوب بها، وترجع أهميتها الدينية لوجود الكعبة المقدسة فيها، والتي يفد إليها الحجاج كل عام مما كان يساعد على الازدهار الاقتصادي كذلك.

كانت قريش أهل تجارة قد أوسر سادتها من ورائها فكانت عيرهم تنطلق صيفاً إلى الشام وفلسطين ومصر وشتاء كانت هذه القوافل تتجه جنوباً لليمن وكانت القوافل التجارية الكبرى تتجه غادية رائحة فكانت تمر بأطراف شبه الجزيرة العربية علي ثلاثة محاور رئيسية حيث كان هناك طريق القوافل الجنوبي الشمالي تقطعها من جدة بالحجاز إلي الشام

وسيناء ومصر والطريق الثاني يقع في أطراف شرق الجزيرة العربية متجهاً من الخليج العربي جنوب العراق ليصل لبلاد الرافدين شمالاً، ليعرج منها على الشام إلي دمشق لتصل هذه القوافل لبلاد الشام وفلسطين والطريق الثالث كان يقع غرب الجزيرة العربية ويمر بحذاء ساحل البحر الأحمر ويبدأ من اليمن عبر جدة فالمدينة ليتجه شمالاً للشام والبتراء فى الأردن وهذه الرحلات الموسمية صيفاً وشتاءاً ظل عليها العرب مبقين.

هذه هي أوضاع المجتمع العربي وأحواله في شبه الجزيرة أنذاك ومن قلب هذا المجتمع وهذا الجو القبلي المعقد والمشرذم الذي توافرت فيه كل أنواع الفساد والبعد عن القيم والأخلاق وأصبح بحاجة إلى عملية تغيير شاملة خرج رسول الله (ص) ليكون قائد عملية التغيير هذه ولقد استطاع هذا الرسول العظيم في مدة وجيزة جداً أن ينقل هذه الأمة من حضيض الذل والمهانة إلى أوج العظمة والعزة والكرامة وأن يغير فيها كل عاداتها ومفاهيمها، وأن يقضي على كل أسباب شقائها وآلامها.